الزاجل ومزاجلهُ

عرف القدماء ان بعض انواع الطيور لو نُقلت من مكانها ترجع اليهِ ولو بعد حين ولذلك استخدموها في إنفاذ الرسائل ايام لا اسلاك برقية ولا سفن تجارية ولا سكك حديدية . وما الغرض هنا الالمام بحال حمام الزاجل واقوال الناس فيهِ فان انواعهُ كثيرة جدًّا تحتاج الى مجلّد لتوفى حقها من الشرح . وقد سبق لهذه المجلة ان اشبعتهُ وصفًا في احدى سنيها الماضية وانما القصد ان الم الى حمام الزاجل ومزاجلهِ في العالم عامة وفي بلادنا خاصةً . اذكرني بهذا الموضوع ما قرأتهُ منذ امد في احدى الصحف العلميَّة الباريسية من رسالة في الزاجل للمسيو هنري دي پادڤيل من اهل العلم الطبيعي قال :

لم تُعرف حتى الآن الخاصية العجيبة التي امتاز بها حمام الزاجل لتعرُّف خوافق السماء والاهتداء الى مزاجلهِ على بعد مئات من الاميال . وقد رأي علماء منافع الاعضاء على ان لهذه الطيور حاسَّة خاصة في رواحها ومغداها . وتجادلوا في حاسَّة الاهتداء حتى اثبت كل من المسيو بونيه والمسيو ميون أن للحمام حاسة خاصَّة يستطيع بها الاهتداء في عنان الفضاء. وعلى هذا تكون الطيور وغيرها من انواع الحيوان مفضَّلة على ابن آدم من هذا الوجه وان لم يثبت ذلك في الحقيقة . قال وقد اهدى رجل في باريس الى صديق لهُ مولع بتربية الحمام في احدى مقاطعات فرنسا واسمها بيريكورد وهي على مسافة ٣٦٠ كيلومترًا او ٩٠ فرسخًا من باريس حمامتين غير مدربتين ارسلهما لهُ في القطار فكان منهُ ان حبسهما في قنٍ فلم ترقهما العيشة وطارا من مزجلهما تاركين فراخهما بعد شهرٍ حتى وصلت احداهما الى باريس بعد يومين وثانيتهما بعد ثلاثة . وبعد ان اورد ما يشابه هذه القصة قال : ومع ما لنا نحن البشر من الحواس اي اخرس كان يتأتى لهُ الخلاص من هذه الورطة كما تخلص اقل حمامة نعم ان الحمامتين السالفتين قضتا اكثر من ٤٨ ساعة للرجوع الى مقرهما الاصلي على حين يجتاز المدرَّب هذه المسافة في خمس ساعات . وكيفما كان الحال فان اثبتنا حاسة الاهتداء او الغيناها فانها تعدُّ في الزاجل من خوارق العادات

وقد تكلم الدميريُّ في حياة الحيوان على هذا الحمام وانواعهِ فقال : ومن طبعهِ ان يطلب وكرهُ ولو أُرسل من الف فرسخ ويحمل الاخبار ويأتي بها من البلاد البعيدة في المدة القريبة ومنهُ ما يقطع ثلاثة آلاف فرسخ في يوم واحد وربما اصطيد وغاب عن وطنهِ عشر حجج فاكثر ثم هو على ثبات عقلهِ وقوة حفظهِ ونزوعهِ الى وطنهِ حتى يجد فرصة فيطير اليهِ

وبهذا عُرف ان علماء الحيوان من العرب عرفوا شيئًا حقيقيًّا مما عرفهُ المتأخرون عن الزاجل. وقد اجمع كثير من المؤرخين على ان العرب كانوا اول من استخدم الزاجل في الرسائل في القرن الثاني للهجرة. والزاجل من الاكتشافات الشرقية عُرف في ديارنا منذ نحو الفي سنة ولذا ورد ذكرهُ كثيرًا في الشعر الفارسي والتركي والعربي لانهُ يجعل المسافة بين المحبوب وحبيبهِ الشريد اقرب من حبل الوريد. واستفاض ذكرهُ في اشعار الفرس لما انهم اقدم في الحضارة من العرب وهؤلاء عنهم اخذوا وبمذاهبهم في العمران اقتدوا حتى ان مزاجلهُ لم تبرح لعهدنا ماثلة للعيان في ايران وافغان

ورأى صاحب التعريف ان الزاجل نشأ من بلد الموصل وحافظ عليهِ الخلفاء الفاطميون بمصر وبالغوا حتى افردوا لهُ ديوانًا وجرائد بانساب الحمام. وللفاضل محيي الدين بن عبد الظاهر في ذلك كتاب سماهُ تمائم الحمائم. فاما اول من نقلهُ من الموصل فهو الشهيد نور الدين محمود بن زنكي سنة ٥٦٥. وذكر ابن الاثير في حوادث سنة ٥٦٧ ان في هذه السنة اتخذ نور الدين بالشام الحمام الهوادي وهي التي يقال لها المناسيب وهي تطير من البلاد البعيدة الى اوكارها وجعلها في جميع بلادهِ. وسبب ذلك انهُ اتسعت بلادهُ وطالت مملكتهُ وعرضت اكنافها وتباعدت اوائلها عن اواخرها (كانت من حدّ النوبة الى بلاد همدان) ثم انها جاورت بلاد الفرنج وكانوا ربما نازلوا حصنًا من الثغور فالى ان يصل الخبر يكونون قد بلغوا غرضهم منهُ فحينئذٍ امر بالحمام ليصل الخبر اليهِ في يومهِ واجرى الجرايات على المرتبين لحفظها واقامتها فحصل منها الراحة العظيمة والنفع الكبير للمسلمين. فقد كانت الاخبار تأتيهِ لوقتها لانهُ كان لهُ في كل ثغر رجال مرتبون ومعهم من حمام المدينة التي تجاورهم فاذا رأوا او سمعوا امرًا كتبوهُ لوقتهِ وعلقوهُ على الطائر وسرّحوهُ الى المدينة التي هو منها في ساعة فتنتقل الرقعة من طائر الى طائر آخر من البلد الذي يجاورهم في الجهة التي فيها نور الدين وهكذا الى ان تصل الاخبار اليهِ فحفظت الثغور بذلك حتى ان طائفة من الفرنج نازلوا ثغرًا لهُ فاتاهُ الخبر ليومهِ فكتب الى العساكر المجاورة لذلك الثغر بالاجتماع والمسير بسرعة وكبس العدو ففعلوا ذلك فظفروا والفرنج قد امنوا لبعد نور الدين عنهم

وقال العماد الكاتب وكان نور الدين لا يقيم في المدينة ايام الربيع والصيف محافظة على الثغور وصونًا من الحيف ليحمي البلاد من العدو بالسيف وهو متشوّف الى اخبار مصر واحوالها وتحقيق اعتدالها بتحقيق اعتلالها فرأى اتخاذ الحمام المناسيب وتدريجها على الطيران لتحمل اليهِ الكتب باخبار البلدان وتقدّم اليَّ بكتب منشور لاربابها وإعزاز اصحابها وهو حينئذٍ بظاهر

دمشق مخيم بوادي اللوّان فقلت في الحمام : هي برائد الانباء المخصوصات بفضيلة الالهام والايجاد وهي فيوج الرسائل المأمونة الابطاء والسابقات الموج في الاهتداء والحاملات ملطفات الاسرار في اقرب مدة الى ابعد غاية والموصلات مهمات الاخبار في وقتها من اقاصي الامصار باكمل هداية والقاطعات في ساعتها الى البلاد اجواز الفضاء والموامي والنافذات بنجح المرام بعود السهام الى المرامي وهي تطوي الفراسخ البعيدة والاشواط في ساعة وتنتهي الى اقصى غايات الطاعة باتم استطاعة وقد عمَّ بها نفع المرابطين والغزاة والمجاهدين في سبيل الله في اهداء اخبار الكفرة اليهم من اماكنها دالة على مكايدها ومكامنها طائرة بكتبهم الى مَن وراءهم من الطلائع والسرايا مظهرة لهم من احوالها خبايا الامور الخفايا وانها لميمونة المطار مأمونة العثار سالمة من الاخطار مهدية في الاسفار امينة على الاسرار سابقة الى الاوكار صادرة بالاوطار من الاقطار سائرة الى المؤمنين بنبإ الكفّار

ونقل صاحب الروضتين ان القاضي الفاضل وصفها بالطف من هذه الاوصاف واخصر فقال " الطيور ملائكة الملوك " يشير ان نزولها على الملوك من جوّ الهواء نزول الملائكة على الانبياء عليهم السلام من السماء مع فرط ما فيها من الامانة لا يتوهم من جهتها خيانة . وقال العماد ايضاً في حوادث سنة ٥٨٦ عند حصار صلاح الدين عكاء لما انقطع اخبار البلد عنهُ انتدب العوام للسباحة حتى صاروا يحملون نفقات الاجناد على اوساطهم ويخاطرون بانفسهم مع احتياطهم ويحملون كتباً وطيوراً و يعودون بكتب وطيور نكتب اليهم ويكتبون الينا على اجنحة الحمام بالترجمة المصطلح عليها . وكان في العسكر من اتخذ حماماً يطوف على خيمته ونزل في منزلهِ وعمل بها برجاً من خشب ودوادي من قصب ويدرّجها على الطيران من بعد . وكنا نقول ما لهذا الولع بها لا ينتفع حتى جاءَت نوبة عكاء فنفعت واتت بالكتب سارحة شارحة وكنا نطلبها مع الليل والنهار حتى قلَّ وجودها لكثرة الارسال . قلت وقد غالوا لذلك العهد في الزاجل حتى روى بعض الكتّاب من الفرنجة ان زوجهُ كان يباع بنحو الف ذهب غساوي

وكان لحمام الزاجل مزاجل لتدريجهِ في مصر والشام قال الشهاب العمري من علماء القرن الثامن للهجرة واعلم ان الحمام بمصر انقطع تدريجهُ بالوجه القبلي وقد كان متصلاً الى قوص واصوان وعيذاب ولم يبقَ الآن منهُ الاَّ ما هو من القاهرة الى الاسكندرية ومن القاهرة الى دمياط ومن القاهرة الى السويس ومن القاهرة الى بلبيس متصلا بالشام ومن بلبيس ايضاً الى الصالحية ومن الصالحية الى قطيا ومن قطيا الى الواردة ومن الواردة الى غزة ومن غزة الى بلد الخليل عليهِ السلام ومن غزة الى القدس الشريف ومن غزة الى نابلس ومن غزة الى لدّ ومن

لدّ الى قاقون ومن قاقون الى جينين ومن جينين الى صفد ومن جينين الى بيسان ومن بيسان الى اربد ومن اربد الى طفس ومن طفس الى الصنمين ومن الصنمين الى دمشق ومن كل واحدة من هذه المراكز الى ما جاورها من المشاهير كمن بيسان الى اذرعات ومن طفس اليها لاشعار والي الولاة. ثم من دمشق يسرح الحمام الى بعلبك ويسرح الى قارا ويسرح الى القريتين ثم من قارا الى حمص ومنها الى حماة ومنها الى المعرّة ومنها الى حلب ومنها الى البيرة والى قلعة المسلمين والى بهنسى ومنها الى الرحبة وقد تعطل الآن (في القرن الثامن) تدريج السخنة الى قباقب وانما صار يسوق بطائق تدمر الواقعة بالسخنة منها الى قباقب ثم يسرح على الجناح من قباقب الى الرحبة وبهذا تم ذكر مراكز الحمام في سائر الممالك الاسلامية . وفي ترجمة الظاهر بيبرس انهُ زاد الابرجة مكان المحدثة وعمل بها الخفراء وبنى من القصير الى المناخ الى قار الى حمص اعمدة وابرجة فيها الحمام والخفراء وكذلك من دمشق الى تدمر والرحبة الى الفرات

وتباينت الآراء في تاريخ استعمال الزاجل وجمهور المؤرخين وعلماء الحيوان على انهُ يردُّ الى نحو الفي سنة فقد كان بحّارة مصر وقبرص يتناقلون اخبارهم على جناح الزاجل ويبعثون بها الى البر وكذلك المصارعون في الالعاب الاولمبية . وكان استعمالهُ شائعاً عند الرومانيين حتى ان القائد مايور المشهور كان يرسل اخبارهُ الى اصحابهِ بواسطتهِ لما كان محصوراً في موتينا احدى مدن ايطاليا سنة ٤٤ ق . م . ومن رأي دائرة المعارف الاميركية انهُ لا يعرف اول مستخدم لهُ ويقول السير جون ماندڤيل ان الرومان استعملوهُ كما استعملهُ اهالي آسيا واستخدم ايضاً ايام سانت لويس اي في خلال الحروب الصليبيَّة فاستخدمهُ ناسوا في حصار بيت المقدس

واكّد بعض المؤلفين بتدريجهِ من الافرنج ان العرب كانوا يتخابرون بالزاجل في جزيرتهم فلما استولوا على الاندلس نقلوا اليها كيفية استخدامهِ على النحو الذي كانوا يستعملونهُ في بلادهم الاصلية وادخلوا الى الاندلس نوعاً من الزاجل غاية في القوة فزاوجهُ الاسبان مع حمام الفلنك عند ما استولوا عليها ومع ان الزاجل غير مرتقية احوالهُ الآن في اسبانيا تراهُ ارقى مما هو عليهِ في الشرق . وروى بعضهم ان استعمالهُ شاع في اوربا في القرون الوسطى خصوصاً في البلجيك والفلنك حتى كان المحصورون في هارلم سنة ١٥٧٣ والمحصورون في ليدن سنة ١٥٧٤ يتخابرون بواسطة الزاجل في حرب الفلنك المشهورة

وجاء في دائرة معارف ريس المطبوعة سنة ١٨١٩ " ان بعض سفراء المسلمين لما جاؤوا الى جود فري ايام الحروب الصليبية استصحبوا معهم حمام الزاجل فلما قضيت مصالحهم ارسلوا رسائل من الزاجل الى رفاقهم يعلمونهم بذلك . وبرهن بوكارت على قدم استعمال الزاجل

في سورية وبلاد اليونان بعدة حوادث . فان هيرتيوس وبروتوس تخابرا بالزاجل اثناء حصار مودنا . ومنذ اربعين او خمسين سنة بطل استعمال الزاجل بين الاسكندرونة وحلب لان بعض لصوص الاكراد اطالوا يد التعدي عليها وقتلوا اكثرها " . وذكر بعض المؤرخين ان الدولة العثمانية ابطلت استعمال الزاجل في اواخر القرن الحادي عشر بعد ان لبث زمناً مستعملاً في بلادها . ونشرت الجرائد التركية منذ نحو ثلاث سنين صورة ارادة سنية قاضية باستخدامهِ لنقل الاخبار في المعسكرات السلطانية فبني لهُ برج في جتالجة من ضواحي الاستانة

وذكرت موسوعات ريس ان الشركة الانكليزية الهندية استخدمت الزاجل فكانت عند رسوّ سفنها في ثغر الاسكندرونة تبعث بالرسائل مع الزاجل الى الدواخل لاعلام الاهالي بوصولها وكانت الرسالة توضع تحت جناح الطير وكانت رجلاهُ تغطسان بخل ليبقى منتعشاً فلا يسف الى المياه ليعُبَّ اذا رآها في طريقهِ وكان يقطع المسافة بين حلب والاسكندرونة في اقل من ساعتين ونصف — كما ان حماماً من الزاجل يقدر ان يحمل رسالة من بابل الى حلب ويقطع المسافة وهي للمسافر ثلاثون يوماً في اقل من ٤٨ ساعة — وكان اذا أُخذ من حلب الى الثغر يوضع في قفص مكشوف مدة الطريق ومتى وصل الى الثغر وتُرك منهُ يرجع حالاً الى عشهِ ومتى أفلت كان يصعد في الجو حتى يشرف على حلب فيرفرف على بيتهِ وينزل كالسهم

وفي الموسوعات الاميركية ان العثمانيين ابرع الناس في تربية الزاجل وطريقة تعليمهِ عندهم هي ان مربي هذا الحمام يضع الفراخ التي صارت قادرة على الطيران في زنبيل ويأخذهُ الى مسافة نصف ميل ثم يطير منها الفراخ فالذي يؤوب الى عشهِ يصلح فيما بعد للزجل فيأخذهُ مسافة ابعد من الاولى ويفعل معهُ فعلهُ الاول وهكذا تدريجاً حتى تصبح المسافة التي يقطعها مئة ميل او اكثر ويصبح بعد ذلك قادراً على الرجوع ولو من اقصى اطراف المملكة.

وقبل ان يزجلوهُ في انكلترا يضعونهُ في محل مظلم قدر ست ساعات ويطعمونهُ ويسقونهُ في غضون ذلك حتى يمتلئ . ويظهر من الاشعار الانكليزية القديمة واشعار توسو ان الرسالة كانت تعلق بجناح الحمام او بعنقهِ والطريقة المستعملة الآن هي ان تلفّ الرسالة على القسم الاعلى من الرجل وهي اصلح من الطريقة الاولى لانها لا تعوق الطير في طيرانهِ

وفي الموسوعات البريطانية ان طريقة كتابة الرسالة الزاجلية هي ان تؤخذ صورتها الاصلية بالتصوير الشمسي مصغرة على ورق دقيق للغاية . وكانت هذه الطريقة هي المعوَّل عليها اولاً ثم لما تحسنت هذه الصناعة صارت صورة الرسالة الاصلية تطبع بحرف اعتيادي اولاً ثم تنقل صورتها الى غشاء معمول من الكلوديون بالطريقة المعروفة بالتصوير المصغَّر ويبلغ طول الغشاء

قيراطين وعرضهُ قيراطاً وهو خفيف جدًّا حتى ان ٥٠٠٠ رسالة لا يبلغ ثقلها غراماً واحداً تحملها حمامة واحدة. ولكي تحفظ تلك الاغشية من العاهات كانت توضع في ريشة وتناط هذه بريش الذنب . ومتى وصل الحمام الى باريس كانت تؤخذ منهُ تلك الاغشية وتمدد ثم تعكس صورة الكتابة فيها على ستار مكبرة بواسطة المصباح الكهربائي فتنسخ صورة الرسائل وتؤدى الى اصحابها ولكن بعد ذلك استعمل ورق التصوير الحساس عوضاً عن الستار فصارت الرسائل تُطبع عليهِ رأساً . اه

قيل ان الزجَّال يُطيّر في البر والبحر والغالب انهُ لم يثبت فائدتهُ في البحر . وقد ابتُذل استخدامهُ في اوربا ايام حرب السبعين بين المانيا وفرنسا فان هذه استخدمتهُ في حصونها فكان ينقل الاخبار منها الى باريس المحاصرة لان ادارة بريد باريس لاقت من المصاعب الجمة في إرسال الكتب ما لم تلاقهِ ادارة من قبل في العالم وابرزت بتأسيس ادارة بريد من الزاجل من النجاح ما خلَّد لها ذكرًا بين العالمين . ولم يعقد الصلح بين تينك الامتين حتى مهر الفرنسيس في ارسال الزاجل فقد وصلت حمامة منهُ الى باريس حاملة في رأسها اربعة آلاف رسالة مما عجب لهُ الاوربيون واهاب بالمانيا فاستخدمتهُ في حصونها وقلاعها وتخومها وسواحل البلطيك وهي تعدهُ من جملة المواد الحربية التي لا غنية عنها للجيش . وان وزراء الالمان ليُعنون بتربيتهِ جريًا على ما يقتضيهِ منهم امبراطورهم لما انهُ يشجعهم على تربيتهِ ويكافئ من يحسنها بالوسامات الذهبيَّة وشارات التجلة والاكرام . وفي ميزانية المانيا نحو مئة الف فرنك مخصصة للزاجل ولهُ مجلة تنشر اخبارهُ عندهم. وشاع استعمالهُ منذ نحو ثلاثين سنة في ايطاليا والبرتغال وروسيا وانكلترا وسويسرا والدانيمرك والنمسا والبلجيك والفلنك وكل دولة تصرف عليهِ جانباً من النفقات

واحسن المدائن التي تلائم طبع الزجَّال مدينة انفرس في البلجيك ولذا فهي اشهر مراكز الزاجل للبريد لعهدنا . وقد كان الزاجل يُطيّر من لندن الى انفرس في ثلاث ساعات وكذلك من هذه الى باريس ويفوق طير البلجيك ما يربى في غيرها من حيث سرعتهُ وضخامتهُ. ويقطع الزاجل المسافة بين باريس وليون وهي خمسمائة كيلومتر في ثماني ساعات مما لا يتيسر للقطار ذي السير السريع ان يقطعها الاَّ في ١٣ ساعة. ولا يستوي سيرهُ في الجبال والسهول فانهُ قد يقطع في السهل ثلثمائة كيلومتر قبل ان يقطع مئة في غيرها من الحزون والجبال. ولا يصلح للزجل الاَّ واحد من كل ثلاثة زواجل بداعي ما يصيبها من العواصف وبنادق الصيادين ومخالب الجوارح. وما ينفع من الزاجل في الاوقات الممطرة قد لا ينفع في الاوقات الصحية واذا تأخر عن ميعاد وصولهِ لما يسطو عليهِ من الطيور الضارية لا يهلك وحدهُ بل يهلك بما معهُ من اسرار واخبار

وحمام الزاجل اكبر من الحمام الاعتيادي يبلغ طولهُ ٣٧ سنتيمترًا ووزنهُ ليبرة وربع وعضلات صدرهِ قويَّة جدًّا وهو سريع الطيران ومنقارهُ مغشًّى بغشاء جلدي متقبب ممتد الى ما فوق الرأس ومتصل بطرفي الفم. وكلما كان هذا الغشاء كبيرًا وكان للطير حلقة متسعة حول عينيهِ لا ريش عليها زاد حسنهُ وارتفعت قيمتهُ. واستخدامهُ ضروريٌّ للحصارات ونقل الاسرار عند الخشية من الاغيار والاشرار

واذا شاع استعمال التلغراف بلا سلك يستغنى عن الزاجل كما انهُ قلَّ استخدامهُ لما ظهرت الاسلاك البرقيَّة وهو لا يزال مع هذا يُستعمل في بعض اقطار الغرب لنقل الاخبار المالية الى اسواقها وتبليغ الاخبار للصحف الخطيرة محمد كرد علي

ارباب المال والاعمال

المستر لفر صاحب صابون صنلَيت

لما اخترنا سيرة هذا الرجل لنضمها الى سيَر الرجال الذين سميناهم بارباب المال والاعمال خطر لنا ان كثيرين من القرَّاء لا يعدون صانع الصابون اهلاً لان يذكر اسمهُ مع اسماء الرجال العظام الذين تتسع بهم ثروة بلادهم وتزيد قوَّتها لانهم لم يروا بين صانعي الصابون رجلاً بلغت ثروتهُ مبلغاً عظيماً لكن ما يتيسَّر في البلدان الكبيرة الواسعة الثروة لا يتيسَّر في الصغيرة الفقيرة. ولو كانت سيرة هذا الرجل مقتصرة على نجاحهِ في صناعتهِ وتجارتهِ ما عنينا بنشرها ولا وجدت لها محلاً في المقتطف ولكننا رأينا فيها مثالاً لما يجب ان يجري عليهِ ارباب الاعمال في معاملة العمال اذا ارادوا ان يضيفوا الى الثروة حسن السمعة والاحدوثة فنشرناها عسى ان يكون في نشرها عبرة للذين يئنُّ عمالهم من شدَّة وطأتهم

المترجَم المستر وليم رسكت لفر ولد سنة ١٨٥١ وكان ابوهُ تاجرًا يبيع المأكولات فشاركهُ في تجارتهِ الى ان صار عمرهُ ثلاثين سنة ثم استقلَّ وفتح محلاً لبيع البقالة وعكف عليهِ بهمة ونشاط فوسَّع نطاقهُ ووفَّر ارباحهُ وباعهُ بعد خمس سنوات بستين الف جنيه عازماً ان ينقطع لعمل آخر اوفر ربحاً من البقالة وهو عمل الصابون فاشترى مصبنة صغيرة وحاول ان يصنع صابونًا جديدًا يسميهِ اسماً يسهل دورانهُ على الالسنة ويكون لهُ وقع حسن في الآذان فصنع هذا الصابون بعد تجارب كثيرة ونفقات كبيرة وكتب بضعة اسماء جعل ينظر فيها يوماً بعد آخر الى ان اختار منها اسم صنلَيت (اي نور الشمس) وحينئذٍ اقبل بكليتهِ على ما حسبهُ